﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[الواقعة: 68 - 70]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من النَّتيجة في ذكرِ الحرث إلى السَّبب في ذكر الماء

لمّا ذكر في الآيات السّابقة الحرث الَّذي ينبت زرعه وشجره بالماء؛ ناسب ذكر الماء بعده، فهو انتقالٌ من الاستدلال بتكوين النَّبات، إلى الاستدلال بتكوين الماء الَّذي به حياة الزَّرع والشَّجر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُزْنِ﴾: (مزن) يدلُّ على السَّيلِ والانسياب، ومنه قولهم: مَزَنَ السَّحابُ؛ إذا أمطر، وسال، والمَزن: هو السَّحاب عامَّة[1]، وقيل: السَّحاب ذو الماء[2]، أو هو السَّحاب الماطر، و(المُزنَةُ) أيضًا المَطرَةُ[3]، دون أن يكون كلُّ سحابٍ مزنًا؛ بل إنَّ ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ أخصُّ من السَّحاب؛ إذ لا يُطلَق إلّا على السَّحاب المتكوِّن من ماء ثقيل مهيَّأ للإنزال، بخلاف الغمام الَّذي قد لا يحمل ماءً أصلًا.

2) ﴿أُجَاجًا﴾: جذر الكلمة هو (أج) والأجاج هو الماء شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيج النار وأجَّتُها، وقد أجّت، وائتجّ النهار. ويأجوج ومأجوج منه، شبّهوا بالنار المضطرمة والمياه المتموّجة لكثرة اضطرابهم وأجّ الظّليم: إذا عدا، أجيجاً تشبيهاً بأجيج النار[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مزن).
(2) ابن سيده، المُحكم: (مزن).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مزن).
(4) الراغب، المفردات: (أجج).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان نعمة الماءِ في إنزالِه وصفاتِه

تُبيِّن الآيات الكريمة نعمةً من نِعم الله على العبادِ، فيقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، أتشاهدونه في حال شرابكم له، وتُدركون لذَّته وبرودته وعذوبته، ثمَّ تغفلون عمَّن أنزله إليكم؟ ثمَّ يُعقِّب بهذا السُّؤال الإنكاريِّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، والمُزن هو السَّحاب المحمَّل بالماء، لا مجرَّد الغيم، فالسُّؤال هنا استحضار للمشهد المحسوس، وتقرير لعجز الإنسان، ثمَّ يأتي التَّهديد المشوب بالمِنَّة في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: مِلحًا مرًّا لا يُطاق[1]، يُفسد الزَّرع، ويُهلك الشّارب، فلو شاء الله؛ لسلب الماء خاصيَّته الَّتي بها قوام الحياة، فلا هو قادر على إنزاله، ولا هو قادر على إصلاحه؛ إن فسد، ثمَّ يختم بتقريع فيه رِقَّة وتذكير: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، أي: فهلّا تشكرون الله على ما وهبكم من هذا الماء العذب، بعد أن بيَّن لكم أنَّه في قبضته وتحت مشيئته.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام في جملة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

توبيخٌ في صورة سؤال، وتقريرٌ في قالب تأمُّل

جاء الاستفهام بعد نظيره في شأن الزَّرع والحرث؛ استحضارًا لمشاهد يوميَّة مألوفة عند الإنسان، يُدعَى فيها؛ ليتأمَّل ما بين يديه ممّا يحسبه مُلكًا معتادًا، وهو في حقيقته آية قائمة بذاتها، فالاستفهام للتَّقرير، المقتضي توبيخ المنكرين للبعث، يُحاصر العقل من جميع الجهات؛ ليقرَّ بأنَّ الأمر لله وحده.

نوع الفاء ودلالتها في جملة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

من عجز عن إنبات الزَّرع فهو عن إنزال الماء أعجز

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ هي فاء تفريع، وهي متفرِّعة على ما قبلها من السّياق، فهي تربط بين مشهد الزَّرع

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 7/ 23.

ومشهد الماء، وهما من أوثق ما يكونان اتِّصالًا في واقع الحياة؛ إذ لا ينمو الزَّرع إلّا بالماء، فالعطف هنا يحمل في طيّه تناسبًا طبيعيًّا، كما يحمل أيضًا تصعيدًا في الحُجَّة، فإن كان الإنسان عاجزًا عن إنبات ما زرع؛ فهو - من باب أولى - أعجز عن إنزال الماء الَّذي به حياة كلِّ شيء.

تعيين المعطوف عليه في جملة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

العطف إمّا على ما قبل الهمزة في الذكور أو مقدَّر بعدها

المعطوف عليه بالفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، إمّا ما قبل الهمزة في السّياق السّابق، وإمّا على مقدَّر بعد الهمزة، والتَّقدير: (أأبصرتم، فرأيتم الماء الَّذي تشربون)، وهذا بناءً على الخلاف في جواز العطف على ما قبل الهمزة.

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

رؤية الماء في نفعِه وآثاره ومشاهده

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، ليست رؤية بصريَّة مجرَّدة، بل هي رؤية عقليَّة تدبُّريَّة، يُراد بها إثارة الفكر واستدعاء التَّأمُّل فيما وراء الصّورة الحسّيَّة، فالماء مشهود للنّاس جميعًا، لكنَّ المطلوب في هذا السّياق ليس مجرَّد ملاحظته، وإنَّما استجلاء معناه من حيث هو نعمة صافية لا يد للإنسان في إيجادها، ولا سلطان له على مصدرها، ولذلك فالسُّؤال الإلهيُّ لا يستنطق العين، وإنَّما يخاطب القلب والعقل؛ ليبعث في النَّفس وعيًا جديدًا بهذه النِّعمة الَّتي تنساب كلَّ يوم بين أيدينا، ثمَّ لا نلتفت إلى عظيم منشئها.

نكتة العدول عن الاكتفاء بالاسم الموصول (ما) بذكر ﴿ٱلْمَآءَ﴾:

التَّصريحُ بالماء أرسخُ في عمومِ المشروبات وأقوى في شمولِ أنواع المياه

اختلف التَّعبير القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ عن النَّظم السّابق من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، فعدل عن الموصول المبهم (ما) إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلْمَآءَ﴾، ثمَّ أتبعه بالوصف الموصول: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، فلم يقل: (أفرأيتم ما

تشربون)، وذلك لعموم (ما)، ولو قيل: (ما تشربون)؛ لكان اللَّفظ عامًّا يدخل فيه كلُّ مشروبٍ، والمراد التَّنبيه على أصلِ كلِّ شراب، وأعظم مورد للحياة، وهو الماء العذب، ففيه تنبيهٌ على أصل النِّعمةِ، وأنَّ ما دونه من المشروبات فعائدٌ إليه، وهو أقوى في العموم وأرسخ في الشُّمول من أن يأتي بـ(ما) الموصوليَّة وبعدها فعل الشُّرب.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾:

جاء التَّقييدُ بالوصف بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾؛ لتعيين موضع المنَّة بما هو معلومٌ حاضرٌ في أذهانهم، مستقرٌّ في نفوسِهم، مع الإشعار بالتَّهديد والوعيد في منعه عنهم.

توجيه تخصيص الماء بالشُّرب:

شربُ الماء أبرز ما في الماء من نعم وآخر المصبور عليه عند نزول النِّقم

جاء تخصيص فعل ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ بالذِّكر دون بقيَّة الفوائد للماء، كالسِّقاية مع تقدُّم ذكر الحرث، لا للقصر، بل لذكرِ أميزِ ما فيه؛ تنبيهًا على سائر ما فيه، "ولأنَّ الشُّربَ أهمُّ المقاصدِ المنوطة به"[1]، فإنَّ شربَ الماء هو أعظم المنن الَّتي عرفها البشر عمومًا، وعرفها العرب الَّذين يعتمدون نزول الماء من السَّماء خصوصًا، فلم تكن عندهم أنهار تجري، ولا بحيرات تُثري، فكان ذكر الشُّربِ تلويحًا ببقيَّة الصِّفات، مع الإيماء إلى أنَّ هذه النِّعمة هي الخطُّ الأخير في خطورة نقص المياه، فإنَّ الإنسان يتدرَّج في الاقتصاد المائيِّ حتَّى يجعل آخر الماء للشُّرب، وهو ما يُقوّي التَّهديد الضِّمْنيَّ في منع الماء عن النُّزول.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

الإيماء إلى دوام النِّعمة وتجدُّد المنَّة

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَشۡرَبُونَ﴾ الدّالَّة على الحال والاستمرار، لا ليصف الفعل الطَّبيعيَّ فقط، بل ليُلفت إلى دوام النِّعمة وتجدُّدها في حياة الإنسان، فالشُّرب حاجة يوميَّة لا تنقطع،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 198.

ومن ثمَّ كان اختيار الفعل المضارع هنا إشارة إلى دوام المنَّة الإلهيَّة وسريانها في الزَّمن، وكأنَّ كلَّ شربة هي تجديد للعطاء الرَّبّانيِّ.

بلاغة المناسبة في ذكر مفردة الشُّرب:

المقابلة بين شراب أهل الدُّنيا وشراب أصحاب الشِّمال

ناسب ذكر مفردة الشُّرب في هذا السّياق ذكرها في سياق عذاب أصحاب الشِّمال؛ إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، فكان ذكر الشُّرب في هذا الموضع بمنزلة مقابلة ضمنيَّة تُظهر الفارق الجوهريَّ بين شرب النِّعمة في الدُّنيا، وشرب العذاب في الآخرة، فهو تلويحٌ تهديديٌّ بمنع الماء في الدُّنيا، وتذكير بعذاب الآخرة، ثمَّ المفردة تفتح أفق القارئ؛ ليُقابل الشُّرب الَّذي لا يُذكر له قيد في هذه الآية، بالشُّرب الَّذي قُيِّد في سياق العذاب، كما في حال أهل النّار: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، فذلك شرب مُقيَّد بعلَّة العذاب، بينما هذا شرب مطلق يفيض نعمة ورحمة.

نكتة حذف المتعلِّق بـ ﴿تَشْرَبُونَ﴾:

كلُّ ما هو متعلِّقٌ بالشُّرب فداخلٌ في الامتنان في سياق الاستدلال

حُذِف المتعلِّق بالفعل ﴿تَشْرَبُونَ﴾، فلم يُذكر معه ما يُشرب لأجله أو كيفيَّته أو ظرفه، كأن يُقال: (تشربونه لريّكم)، أو (في وقت ظمئِكم)، وقصد بالحذف الإطلاق والتَّعميم؛ ليعمَّ جميع أحوال الشُّرب وأشكاله ومقاصده، من ارتواءٍ، أو تذوُّق، أو انتعاش، أو دواء.

وهذا الإطلاق يمنح اللَّفظ سعةً دلاليَّة، تجعل النِّعمة ماثلة في كلِّ موطنٍ يُستعمَل فيه الإنسان الماء، فلا تُقيَّد بلحظة، ولا تُحصر في هيئة، بل يُدعى الإنسان إلى أن يتأمَّل الشُّرب في ذاته، كيفما وقع، ومن حيث هو فعل متكرِّر محتاج إليه دائمًا؛ ليشعر بعِظم المِنَّة ودوام الحاجة، وهو المناسب لسياق الامتنان بقصد الاستدلال، فكان حذف المتعلِّق بـ ﴿تَشْرَبُونَ﴾ مقصودًا لتوكيد شمول النِّعمة،

واتِّساع أثرها، وتجدُّدها في كلِّ آنٍ ومقام، وليجعل من كلِّ شربة ماء ذكرًا لله، وإشعارًا بفضله.

بلاغة الاستفهام في جملة: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ﴾:

جاء الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ استفهامًا تقريريًّا مشوبًا بالتَّوبيخ والتَّقريع، وقد بُني الاستفهام بأسلوبٍ يفرض المقابلة المباشرة بين قدرة الإنسان وقدرة الله، فجاء السُّؤال مقسومًا بين أنتم ونحن، في صورة تحدٍّ يبلغ مداه، كأنَّ الحقَّ سبحانه يقول: بيِّنوا من صاحب الفعل؟ أتراكم تملكون مفاتيح السَّحاب، وتسيِّرون المطر مِنَ المُزنِ، أم أنَّ الله هو الَّذي يُنزل الماء بقدر، ويجريه حيث شاء؟.

الاستفهام التَّقريريُّ يتضمَّن تقريعًا بلاغيًّا وإلزامًا إقراريًّا

وهذا التَّقسيم البلاغيُّ يُفضي بالعقل إلى الجواب الحتميِّ الَّذي يقتضيه التَّقرير: بل الله هو المنزِّل، وهو وحده الفاعل الحقيقيُّ، وهنا تكمن قوَّة الاستفهام؛ إذ هو يوقظ الفطرة، ويُحرج المكابرة، ويُشيع في النَّفس الخضوع للحقِّ.

غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسند إليه: (أنتم) على المسند الفعليِّ: ﴿أَنزَلۡتُمُوهُ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيد الاستفهام المقتضي للتَّوبيخ، فالتَّقديم يبرز تناقض الدَّعوى ومحدوديَّة القدرة؛ لأنَّه يضع المسند إليه في موضع المسؤوليَّة المباشرة، فإذا عُرِض الفعل في مواجهته بدا العجز واضحًا، والسُّؤال ملزمًا، والنَّفي غير محتاج إلى تصريح، وهو من أساليب التَّقرير في البلاغة؛ إذ يُقدَّم الفاعل في الاستفهام؛ ليُحصر فيه المعنى، ثمَّ يُكشف عن استحالته في العقل والفطرة.

تقوية الحكم وتوكيده بقصد التَّوبيخ ببيان عجز المنكرِ

براعة استعمال مفردة الإنزال:

جاء استعمال فعل ﴿أَنزَلۡتُمُوهُ﴾ دون مرادفاته؛ لما فيه من إيحاء بالقصد والتَّوجيه والضَّبط والقدرة، "فقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ

ٱلْمُزْنِ﴾ جُعِل استدلالًا منوطًا بإنزال الماء مِنَ المُزنِ، على طريقة الكناية بإنزاله، عن تكوينه صالحًا للشَّراب؛ لأنَّ إنزاله هو الَّذي يحصل منه الانتفاع به، ولذلك وصف بقوله: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾"[1]، فالإنزال في لغة القرآن لا يكون إلّا عن إرادة وعن تدبير من علوٍّ، وهو في ذاته فعل يدلُّ على تسخير عناصر علويَّة، وإنزالها إلى مواضع مخصوصة بحكمة، فدلَّ اختيار هذه المفردة على أنَّ الإنزال بحدِّ ذاته نعمة مستقلَّة، تقتضي قدرة وإرادة لا يملكها البشر.

الكناية عن نزول المـاء الصّالـح للانتفاع لا مجرَّد وجوده في الأرض

نكتة العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾:

عدل النَّظم في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ عن المضارع الَّذي جاء في الآيات السّابقة ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ و﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾، إلى التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾، وذلك أنَّ فعل ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾ اختلف في عودة الضَّمير عن الفعلين الآخرين؛ إذ رجع إلى الماء الموصوف بأنَّه يُشرب، ولم يرجع إلى (ما) الَّتي تُفيد العموم، فلمّا اختلف الأسلوب في بيان المفعول بين (ما) والتَّصريح بالماء، اختلف الزَّمن، فجاء الماضي للتَّلويح بما يُشرب الآن، دون ذكر ما سينزل في قابل الأيّام، فاختلاف التَّعبير في الزَّمانين لاختلاف التَّعبير في المفعول.

اختلاف التَّعبير بالمفعول مؤثِّرٌ في اختلاف التَّعبير عن زمن الفعل

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ يدلُّ على ابتداء الغاية المكانيَّة[2]، فالإنزال فعل يبدأ من جهة العلو، لا من الأرض ولا من فعل البشر، ممّا يُثبت أنَّ مصدر الماء بعيد عن متناول الإنسان، وأنَّ سببه خارج عن قدرته.

ابتداءُ إنزالِ الماء من السَّماءِ دفعٌ لأوهـامِ القـدرةِ وإثـبـات العجز البشريِّ

وفي ذلك إشارة ضمنيَّة إلى أنَّ المزن - وهو السَّحاب الممطر -

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 324.
(2) المُبرّد، المقتضب: 4/ 136.

ليس بحدِّ ذاته سببًا كافيًا للمطر، بل هو وعاء مخلوق، لا ينزل منه شيء إلّا بأمر الله ومشيئته، فجاءت ﴿مِنَ﴾ لتربط الماء بمصدره الحقيقيِّ، وتُظهر مقام العلو والتَّقدير والتَّدبير، وتقطع الوهم بأنَّ الإنسان يملك شيئًا من هذا الإنزال.

غرض ذكر قيد ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾:

ذِكر قيد ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ لتوكيد بُعد مناله عن قدرة الإنسان؛ إذ المزن هو السَّحاب الممطر العالي، فتقييدُ الإنزال منه بيانٌ لسنَّة الله تعالى في أمر إنزالِ الماء.

نكتة استعمال مفردة ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ دون رديفاتها:

﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السَّحاب: واحدته مُزْنَة، وقيل: هو السَّحاب الأبيض خاصَّة، وهو أعذب ماء[1]، واختيار لفظ ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ في هذا الموضع دون غيره من مرادفات السَّحاب؛ لما دلَّ عليه هذا اللَّفظ، فالمُزن أخصُّ من السَّحاب؛ إذ هو السَّحاب المحتقَن بالماء المطَر، فهو سحاب يُنتظَر منه الإنزال، لا مجرَّد غمام عابر، فجاءت المفردة لتقوية معنى الامتنان، وليكون التَّحدّي أبلغ، والنِّعمة أظهر، والمِنَّة أوضح.

المـــــزنُ هـو السَّحاب المليء بالماء الَّـذي لا ينـزل إلّا بأمرِ العزيز الحكيم

"ولمّا كان الإنزال قد يُطلَق على مجرَّد إيجاد الشَّيء النَّفيس، وكان السَّحاب من عادته المرور مع الرّيح لا يكاد يثبت؛ عبَّر بقوله تحقيقًا لجهة العلو، وتوقيفًا على موضع النِّعمة في إثباته إلى أن يتمَّ حصول النَّفع به: ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾، أي: السَّحاب المملوء الممدوح الَّذي شأنه الإسراع في المضي"[2].

ومن جهة أخرى، فاستعمال مفردة ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ يُشير إلى مرحلة متقدِّمة من التَّكوين، أي: إنَّ الماء قد خُزِّن، وتهيَّأ في السَّماء، ومع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 464.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 419.

ذلك فلا ينزل إلّا بأمر الله تعالى، فالمُزن ليس مظهرًا للقدرة فحسب، بل شاهد على التَّقدير المحكم، من العزيز الحكيم.

نوع ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ منقطعة، وهي الَّتي تأتي بعد همزة الاستفهام لا لتفيد التَّخيير، بل لتُقرِّر ما بعدَها في مقابل نفي ما قبلها، فهي بمعنى بل مع الهمزة، ويُقدَّر المعنى: بل نَحنُ المُنزِلونَ لا أنتم، وهذا الأسلوب يحمل دلالة قويَّة على نفي الفعل عن المخاطَبين، وإثباته انفرادًا لله سبحانه، لكنَّه لا يأتي على وجه التَّقرير البارد، بل على وجه التَّحدّي والإلزام، فيُطرَح أوَّلًا سؤال محرج: أأنتم أنزلتموه؟ ثمَّ تُطرَح ﴿أَمْ﴾؛ لتقلب السُّؤال إلى إثباتٍ قاطعٍ لقدرة الله، كأنَّ البرهان قد استقرَّ، والحقيقة قد ظهرت.

(أم) المنقطعة تقرير في بناء الحُجَّة وتوضيح الاستدلال

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

قُدِّم ذكر المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾؛ لقصر إنزال الماء من المزن على الله تعالى، أي: لا مُنزلَ للماء إلّا نحن، مع ما فيه من التَّقرير والتَّوكيد، فبعد أن سُئِل المخاطَبون سؤالًا يُحرج دعواهم، ويكشف عجزهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ﴾، جاء الجواب الإلهيُّ بأسلوب قصرٍ يفيد الاختصاص والانفراد بالفعل؛ ليقطع الطَّريق على أيِّ وهمٍ بشريٍّ في المشاركة، وليظهر أنَّ القدرة على الإنزال محصورة بالله وحده، لا يشاركه فيها أحد، والمقصود بالإنزال أمران، أحدهما ظاهر: وهو الإنزال، والآخر ضمنيٌّ: وهو إيجاد السَّحاب، وتكثيفه، وجمع الماء فيه، فالإنزال هو المرحلة الأخيرة من مراحل إنزال الماء من السَّماء، والسّابق له طوي ذكره للاستدلال على النّاس بالواضحات.

لا مُـنـزِلَ للماءِ من السَّماء على الحقيقةِ إلّا الله تعالى

غرض ذكر المسند مع معرفته:

آثر النَّظم الكريم ذكرَ المسند ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾ دون الاكتفاء بقوله:

﴿أَمْ نَحْنُ﴾ مع دلالته على الإنزال؛ لتوكيده، وتقوية الاختصاص، وليكون فعل الامتنان حاضرًا في الأذهان.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾:

الموصوليَّة دالَّةٌ على التَّخصيص والثُّبوت في فعل الإنزال الإلهيّ

(الـ) في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ موصولة، تُفيد معنى: الَّذي يُنزِل، لا مجرَّد الوصف العارض؛ للدَّلالة على الثُّبوت والتَّحقُّق والاختصاص بالفعل؛ لأنَّ (الـ) الموصولة في ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾ تجعل الوصف كأنَّه هويَّة ذاتيَّة لا طارئة، فالله تعالى هو وحده المنزل على الحقيقة، وما عداه فليس بمنزلٍ أصلًا، فكان مجيء (الـ) هنا لإضفاء الدَّوام، والانفراد، والتَّحقيق، وكلُّها تُسهم في بيان منَّة الإنزال وإثبات أنَّ الأمر كلَّه لله وحده.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾ دون الفعل:

وصفُ الإنزالِ راسخٌ ثابت لا عابرٌ مؤقَّت

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾، ولم يقل: (أم نحن نُنزله)؛ ليكون المعنى: (بل نحن وحدنا المتحقِّق في حقِّنا فعل الإنزال على وجه الدَّوام والثَّبات)، وهذا أعظم في توكيد القصر الَّذي بدأ بتقديم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾، والتَّعبير باسم الفاعل يُفيد الرُّسوخ في الوصف، والتَّمكُّن في الفعل، بخلاف ما لو استُعمِل الفعل أو النَّكرة.

نوع ﴿لَوْ﴾ ودلالتها:

وجودُ النِّعمة لا يدفع احتمال زوالها، وبقاؤها سرُّ الرَّحمةِ وثبوت الامتنان

جاءت ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، على وجه الامتناع لامتناع، وهي تفيد الشَّرط غير الواقع، أي: إنَّ الله لم يشأ ذلك، لكنَّه يُبيِّن قدرته عليه، وأنَّ تحوُّل الماء العذب إلى أُجاج (ملح مر) ممكن بقدرته، لولا أنَّ رحمته اقتضت خلافه، فأفاد هذا الأسلوب امتناع المشيئة مع إمكانها، فهو جمعٌ بين ديمومةِ الرَّحمة والتَّهديد برفعها، وهو يجري مجرى التَّذكير بنعمةٍ يُظَنُّ ثباتها،

فيكشف أنَّها معلَّقة بمشيئة الله، قابلة للتَّغيير، لا تثبت لذاتها، بل يثبِّتها فضل الله، فهي نعمة في وجودها وفي استمرارها.

بديع فنِّ الاحتباك:

الامتنان توطئة الاستدلال بتحريك القلب لإفهام العقل

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بديع فنِّ الاحتباك، فقد حذف من كلٍّ جملةٍ المذكور في الجملة التي تُقابلها، والتَّقدير: (أفرأيتم الماء النّازل من المزن الَّذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن، فشربتموه أم نحن المنزلون المشربون؟)، فذكر في الجملة الأولى موضع الامتنان، وهو الشُّرب، وذكر في الثّانية موضع العجز عن الإنزال؛ ليكون الامتنان توطئة للاستدلال، مع تضمُّن كلٍّ منهما ما في الآخر من المعنى.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿نَشَآءُ﴾:

تجديدُ التَّهديد تلميحٌ يفطن له القلب المريد

التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَشَآءُ﴾؛ لما فيه من الدَّلالة على تجديد التَّهديد، وأنَّ تغيير نعمة الماء إلى نقمة مرٍّ أجاج أمرٌ ممكن في كلِّ حين، معلَّق على إرادته الحاضرة والمستمرَّة.

فالمضارعُ هنا يوقِظُ في النَّفسِ شعورًا دائمًا بالخطرِ الكامن، ويجعلُ النِّعمةَ في حالةِ تعليقٍ مستمرٍّ على المشيئةِ الإلهيَّة، فيبعثُ في القلبِ الخوفَ والتَّقديرَ والشُّكرَ، فالماءُ ليس مضمونًا ببقائه على صفته العذبة، بل هو مُهدَّد بأن يُقلَبَ في أيِّ لحظة، وهذا ما لا يُفيده الماضي.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ في حذف اللّام وإثباتها في السّابقة:

ما يُظَنُّ معه الاقتدار يؤكَّد فيه التَّهديد، ويُرفَع التَّوكيد عند اندفاع مظنَّة القدرة

أثبت النَّظم في موضع الزَّرع اللّام في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي موضع الماء قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، فلم يؤكِّد؛ وذلك للتَّنبيه على أنَّ السّامعين لما مضى التَّوقيف على تمام القدرة صاروا في حيز المعترفين، فقال تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾[1]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 420.

ففي الزَّرع، كان ذكر اللّام؛ ليفيد التَّحقيق والتَّوكيد؛ إذ إنَّ تحوُّل الزَّرع عن حاله النّاضر بعد ظهوره إلى حُطام، أمرٌ لا يتبادر إلى الذِّهن إلّا بسبب ظاهر كجائحة أو إهمال، وقد يُظنُّ أنَّ سببه من فعل الزّارع أو خلل في السَّقي، فكان توكيد الفعل بلام الجواب بيانًا أنَّ الله هو الفاعل على الحقيقة، وأنَّ التَّحوُّل الحادَّ في هذا المشهد لا يُعزى لغير إرادته ومشيئته، فجاء التَّوكيد مناسبًا لهذا الالتباس المحتمل في الأذهان.

أمّا في الماء؛ فقد جاء التَّعبير بلا لام؛ لأنَّ تحوُّل الماء من عذب إلى أُجاج أقرب وأيسر وأوضح في الذِّهن والعلم؛ ذلك أنَّ إنزال الماءِ من السَّماء محض إرادة لله تعالى، أمّا الزَّرع؛ فقد يظنُّ فقراء العقول أنَّ للبشر أثرًا في المحافظة على الزَّرع لما لهم من أسبابٍ في الحرث والبذر، بخلاف إنزال الماء، ولذلك جاء التَّوكيد فيما يُظنُّ فيه الاقتدار، وحذف فيما لا مظنَّة فيه ذلك.

بلاغة استعمال مفردة الأجاج:

شديد الملوحة والمرارة في الأجاج المقابل لماءِ المُزنِ العذب الزُّلال

اختيرت مفردة ﴿أُجَاجًا﴾ دون غيرها من ألفاظ الماء الرَّديء؛ لما تجمعه من الملوحة والمرارة معًا، فلا يُشرَب، ولا يُستساغ، بل تنفر منه الطِّباع، وتضرُّ به الأجساد، والبلاغة في هذا اللَّفظ أنَّه جمع بين صفتي الضَّرر، الملوحة والمرارة؛ ليُقابل بذلك النِّعمة الَّتي سبق الحديث عنها في المزن، وهي الماء العذب الزُّلال، فكما أنَّ الماء العذب أصل الحياة، فإنَّ الأُجاج بضدِّه، فلا يروي، ولا يُحيي، بل يُفسِد، ويُؤلِم.

وقد جاء هذا الوصف بصيغة المبالغة (فُعال)؛ للدَّلالة على شدَّة الأثر، لا مجرَّد وجود الملوحة، فليس ماءً مالحًا فحسب، بل بلغ غايته في الإفساد، فالتَّعبير يُرينا كيف تنقلب النِّعمة في لحظة إلى نقمة مهلكة لو شاء الله تعالى ذلك.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فصيحة، وهي تُنبئ عن شرطٍ محذوف، وتقديره: إذا علمتم تلك الأدلَّة والبراهين على قدرة الله تعالى على البعث؛ فلولا تؤمنون، وتشكرون.

غرض استعمال (لولا):

التَّحضيض على الـشُّـكـرِ دليـل العناية الإلهيَّة والرِّعاية الرَّبّانيَّة

(لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ جاءت على وجه التَّحضيض، أي: فهلّا ولِمَ لا تجدِّدون الشُّكر على سبيل الاستمرار[1]، وهو أبلغ من مجرَّد الطَّلب؛ إذ يُشعر أنَّ الشُّكر متوقَّع من المخاطَبين توقُّعَ اللُّزوم العقليِّ والخلقيِّ، وأنَّ تركه ممّا لا يليق بحالهم بعد هذا البيان، فـ(لولا) التَّحضيضيَّة تفيد أنَّ النِّعمة الَّتي أُبقيت، مع إمكانيَّة زوالها، تستوجب من العقلاء أن يبادروا إلى الشُّكر، لا أن يتقاعسوا عنه، أو يغفلوا، فهي توبيخ لطيف يخرج في صورة عتابٍ يبعث على الحياء والانتباه، كأنَّ المعنى: أين شكركم؟ لماذا لم يقع بعدُ مع أنَّ موجبه قائم ظاهر؟.

بلاغة استعمال ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

الشُّكر الحقُّ هو المتضمِّن الإيمان الخالص

اختيرَ فِعلُ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ بَدَلًا مِن (تُؤمِنونَ)؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَذكيرٍ بنِعمَةٍ مُشاهَدَةٍ، ومُقتضى ذلك الإيمانُ باللّه تعالى، لكنَّ النَّظم أتى بثمرة الإيمان؛ لأنَّها الأظهرُ في هذا المقام، فالشُّكرُ هوَ أقرَبُ ما يُطلَبُ عِندَ الإنعامِ الظّاهِرِ المَلموسِ، والماءُ نِعمَةٌ مَحسوسَةٌ يَشرَبُها الإنسانُ، ويَرَى أثَرَها، ولِذَلِكَ طولِب النّاسُ بإظهارِ الامتِنانِ، بالشُّكر المتضمِّن الإيمان.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾؛ لتقوية معنى الحضِّ في شكرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 420.

النِّعَم على الدَّوام، فالشُّكر القائم على الإيمانِ سلوكٌ متجدِّد مستمرٌّ، يتناسب مع دوام النِّعمة وتكرارها؛ فالماء يُشرَب كلَّ يوم، والمنَّة تُجدَّد كلَّ لحظة، ولذلك ينبغي أن يكون الشُّكر حالة حاضرة ومتَّصلة لا مقطوعة، كما أنَّ في اختيار المضارع المقترن بلولا إشعارًا بضرورة سرعةِ المبادرة في الشُّكر، فجاء التَّعبير بفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في موضعه؛ ليدلَّ على أنَّ الشُّكر واجبٌ مستمرٌّ، لا لحظة عابرة من الاعتراف، بل مقام دائم من الاعتراف بالنِّعمة والخضوع للمنعِم.

تقوية معنى الحضِّ في شكر المنعم على الدَّوام

غرض حذف المتعلَّق بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

حُذِف المتعلِّق بالفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في قوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، فجاء مطلقًا غير مقيَّدٍ، وذلك إمّا لتنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، أي: ليتحقَّق منكم الشُّكرُ المنبئ عن إيمانكم، وإمّا للعموم، فيدخل فيه شكر الله تعالى على جميع نعمه، أو لمعرفة المحذوف من السّياق، وهو نعمة الماء على وجه الخصوص.

الحذفُ إمّا للعناية بالفعل أو تقدير المحذوف عامًّا أو خاصًّا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المزن والسَّحاب:

المُزن هو السَّحاب المحمول بالماء، أو ما اشتمل على المطر وأصبح أهلًا؛ لأن يُنزل الغيث، واشتُقَّ من الفعل (مَزَنَ)، أي: جرى، وسال، وفيه معنى الحركة والانسياب، وربَّما أُلحق به معنى الكرامة والخير؛ لأنَّ العرب كانت تتفاءل بالمطر النّازل مِنَ المُزنِ، فتجعل له شأنًا خاصًّا من حيث النَّفع والرَّجاء، فكلُّ مُزنٍ سحاب، وليس كلُّ سحاب مُزنًا.

المزن المليء بالماءِ العذب، والسَّحاب أعمُّ منه

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"